

# الأيدي القذرة

بقلم عبدالله عبد الدائم

أ يخاطبنا ما في نفوسهم من شرارات الفهم الصحيح والاهتمام الصادق بالمشكلات الجدية؟ وهل من الجائز أن يكون هدف الفكر أن يلدغ بأفيونه أولئك الذين تحتاج أعصابهم المخدرة إلى جرعة كبيرة من المثبرات، أو أن يبرق البخور لمن تطيب لهم رؤية الاطيفاف والاشباح، فيروي خيالهم المريض ويفرقهم في عالمهم الموهوم؟ أو ليس هدف الفكر أن يجلو الفكر الصحيح، الفكر الذي يرى ويرى بوضوح وبينه، والذي لا تحجبه عن الحقائق غشاوات الاوهام وسحب الاحلام وأبجزة الغرائز؟ وهل كانت مهمة الكاتب في يوم من الايام أن يهبط إلى مستوى غرائز الجمهور وأن يستفيد من ضلاله، فيدفعه على حساب هذا الضلال أنواع الرؤى الكاذبة والبضائع الزائفة؟ أوليست مهمته أن يرفع ذلك الجمهور إلى مستوى الجدية في التفكير والبحث، وأن يدينه من وضوح النهار، نهار العقل ونوره؟

وبعد، قد يكون لنا إلى مثل هذا الحديث الهام عود. وما قادنا إليه هنا إلا التساؤل عن موقف كتابنا من النتاج الذي يغزو الأسواق وعن واجبه حيال ما يكتب، وإلا شعورنا بأنهم مدعون إلى أن يقولوا كلمتهم في ترجمات تواترت في الايام الاخيرة، تنقل إلينا بعض أفكار الوجودية.

ونود أن نذكر، بهذا الصدد، أننا لم نطلع على حديث عن هذه الموجة الوجودية التي هبت على النتاج العربي إلا في كلمة قصيرة عابرة،

نشرتها جريدة «صوت الاهالي» العراقية، وكتبها «غائب طلمعه فرمان». وقد كتبنا بمناسبة ظهور ترجمة «الأيدي القذرة». وهي في الواقع هجاء قبل أن تكون تحليلاً عميقاً دقيقاً مثل هذا الكتاب الذي لا تجوز الإشارة إليه بمثل ذلك العبث الخائف. وهي، على جملها، تنسم بما تنسم به كثير من الكتابات التي أشرنا إليها منذ حين، نعتي أنها تحاول أن تهيج أعصاب القارئ وحواسه، قبل أن تحاول إيفامه وإنارة ذهنه.

على أن الكاتب معذور فيما فعل بعض الشيء: فالوجودية لقيت مطاعن من نوع مطاعنه في كثير من البلدان، وعالجها كثير من الكتاب بهذا الاسلوب اللئيم العصبي. ولم تكن يوماً موضع بحث وواع دقيق. والكاتب معذور أيضاً لسبب آخر: وهو أنه ينظر إلى الامور، فيما يبدو لنا، نظرة مغشاة بحماسة حزبية كثيراً ما تطمس حقائق الاشياء. فهو يحسب أن الرواية حملة موجة ضد الحزب الشيوعي وأسلوبه، بل ضد

منذ أمد قريب ترجم الى اللغة العربية كتاب سارتر «الوجودية فلسفة إنسانية»، كما ترجم الرد عليه «الوجودية ليست فلسفة إنسانية». وفي الآونة الاخيرة طلعت علينا «دار العلم للملايين» بترجمة مسرحية سارتر الشهيرة «الأيدي القذرة \*»، كما طلعت علينا بمجلة «الآداب» قبل ذلك بترجمة موفقة لمسرحية «كامو» «العادلون». وبعد حين سوف يلقي القراء ترجمة أعدها الدكتور سهيل إدريس لكتاب يتحدث عن «سارتر» وأدبه وفلسفته من تأليف «ألبيريس».

ومع ذلك لم تاق هذه الموجة الجديدة من الفكر الوجودي كبير عناية من الكتاب العرب. وما الظن بهم أن يعدونها هبة عابرة مما تقذف به المطبعة العربية كل يوم. وإياً كانت الحال، فن حق القراء على هؤلاء الكتاب، فيما نرى، أن يشتروا وإياهم في تفحص مثل هذه الكتب وتدارسها، وأن يجملوا من كل نتاج يطال على دنيا العرب زاداً يدينون سماته ويشيرون إلى موضعه وشأنه. ويستبين هذا الواجب المفروض على الكتاب قوياً وواضحاً، إذا ذكرنا أن النتاج العربي يمر بمرحلة من الفوضى، والقلق، وأن ما يترجم أو يؤلف أو يدبج في مقال، لا يتم دوماً لدى فاعله وفق خطة مرسومة مبيتة لها أهدافها ومنازعتها، كما لا يحاول قارئه دوماً أن يتعرفوا على موضعه من حياة أمتهم وشأنه في جملة كيان البلاد الفكري. وكثيراً ما يكون خبير الكتاب لما يترجمون أو يكتبون تخيراً لا تملية إلا صدفة عابرة أو نزوة سائرة. ولا عجب

بعد ذلك أن يكون اصطفاء القراء لما يقرأون أكثر خضوعاً للصدفة واستسلاماً للفوضى.

واعتقد أن هذه المرحلة التي تمر بها البلاد العربية تتطلب من كتابنا خطة منظمه في البحث والنتاج، وتفرض عليهم أن يجملوا هدفهم شق أخاديد واضحة مفيدة في حقول القراء وفتح طرق قوية سديدة تهب لكيان فكري هكين. ويزيد في خطورة الامر أن النتاج الفكري، إن لم يوجه بمثل هذه الخطة الواعية المحككة، ووجهه غرائز الجمهور أو مطالب المشرفين على دور النشر، فاذا به يجمل إلى القراء ما يهددهم غرائزهم المريرة وما يداعب حواسهم، وإذا به يبغى هز الشهوات المبتذلة والاعصاب الواهنة. قبل أن يبغى هز أعماق النفوس وإثارة مشكلات الحياة الاجتماعية. وهل أقتل للأدب والفكر من أن يرتقا تلك الأحاسيس العضوية اللزجة لدى القراء في غوايتها، بدلاً من

(\*) نقلها الى العربية الدكتور سهيل إدريس والاستاذ ا. هـ. شويري، ١٨٠ ص.

## النتائج الجديدة

يتناول الاستاذ عبدالله عبد الدائم في هذا المقال موقف بعض النقاد، ممن يكتبون بالنظرة السطحية، او بمن تضرب احوالهم الشخصية غشاوة على عيونهم حين يتناولون كتاباً ما بالنقد او التحليل، فيسيئون الى الكتاب المنقود، والى انفسهم في وقت واحد. ثم يجلل الكاتب مقاصد «سارتر» في مسرحية «الأيدي القذرة». ونحن مع تحفظنا تجاه بعض تحليلات الاستاذ عبد الدائم، في تصوير شخصيات المسرحية، ولا سيما شخصية «هوغو»، نعتقد ان هذا المقال نموذج يحتذى في النقد والدراسة الموضوعيين.

«التحوير»

جميع الاحزاب. ويعتقد أن من شأنها أن تزيل ثقة الناس بالاحزاب والنظام الديمقراطي ، مينة لهم أن الحياة الحزبية « عبث وهسو ومجون » وأن القائلين عليها يسمون إلى « حاجات شخصية ، ويتصارعون من أجل غايات خاصة » . ولهذا نراه ينتهي بأن يحكم عليها ذلك الحكم الذي غدا ، فيما نعتقد ، بغيضاً إلى النفوس ، فاقداً معناه وهو وصيها بأنها تخدم مصالح المستعمرين والرجعيين وسامرة الاوضاع الفاسدة . ورأينا أن مثل هذا الحكم على مؤلف أدبي هو أول ما ينبغي على الكتاب اجتنابه ، لئلا يقوموا في الابتذال ولئلا يستعبدوا للألفاظ الكبيرة الجوفاء .

وما غرضنا هنا أن ندافع عن سارتر او عن مسرحيته . غير أن الذي نريد ان نقوله هو ما يوافقنا عليه كل انسان، نعي ان الحديث عن مثل هذا الكاتب لا يكون بمثل هذا الاسلوب القاطع الذي لا يجتمل الاستئناف أو التمييز ، وان « المسرحية » لا تنقد بمثل هذه الأفكار المبنية الضيقة . أفلا يشترط لفهم أي كتاب حد ادني من فتح النفس له وتقبله ؟ حد ادني من الكرم ؟ وهل يستطيع ان يدرك ما يقوله الآخرون من غلق ابواب نفسه سلفاً دونه ، وواجهه مغاضباً مشيحاً بوجهه ؟ وهل يفيد القراء حقاً نقد يدر كون عند قراءته أنه يجاوز الحدود مجاوزة مغرقة ، وأنه يسرف ولا ينيص ؟ وهل من تربية فكر القراء في شيء أن نمودم على هذا النوع من النقد الجامح الارن ؟ لقد وحد « برغسون » بين المتجمد والمضحك ، واعتبر مما يثير الضحك التصلب وققدان المرانة والجروح إلى الشيء الملقن المرسوم سلفاً . ونحن نكبر الكتاب ، وهم أبعد الناس عن مثل هذا التجمد ، عن أن يندردوا في مثل هذا المتزلق اندفاعاً مع سورة تحطم ما في فكرهم من آفاق لينة رحيبة .

والحق ، إن المشكلة كلها مردها إلى فكر « سارتر » نفسه . ففي افكاره وآرائه عامة دقة كثيراً ما تحفى على الفطناء ؛ وهي بالاضافة الى هذا لا يمكن ان تؤخذ منه صلة عن سياقها العام : فكل فكرة عنده ينبغي ان تفهم من خلال فلسفته العامة ونظرته الشاملة . وكثير من اقواله يمكن ان تحمل على غير محملها إن اخذها القارئ مبتورة مقطوعة عن نسغها الاصيلي . وكثيراً ما يعتقد قارئه ان القصد من افكاره هو هذا الشيء المعين ، بينما هو يريد في الواقع شيئاً آخر لا يستبين إلا لمن أدرك فكره في جملته ومن خلال مذهبه الكلي .

وهكذا نراه مثلاً في رواية « الايدي القذرة » يود في الدرجة الأولى ان يشرح بعض الافكار التي قد يحسبها القارئ العادي ثانوية في الرواية ليست بذات بال بيناهي عند صاحبها قلب الموضوع . فهو يريد اولاً ان يبين فكرة عزيزة عليه ، وهي الصلة بين ذات الشخص وذات غيره ، وأثر النظرة التي تلقاها من الشخص الآخر في خلق الانفعالات وتوجيهها . والذي يريد ان يصفه عندما يحدثنا عن تحاذل « هوغو » وتراجعه عن قتل « هودر » في البداية ، ليس هو ، كما قد تظن ، خور الانسان وضعفه وتراجع الحزبي حين يكشف انحراف قادة

حزبه عما يراه من مبادئ ؛ بل الذي يريد ان يصفه قبل هذا هو تراجع الانسان عامة عندما يلقى إنساناً آخر وجهاً لوجهه وعندما يحاول ايداءه او قتله وهو ينظر اليه ويجدته ويعرف ما يدور في رأسه :

هوغو : - « إن اي انسان يستطيع ان يقتل اذا لم يقسر على رؤية مايفعل » ( ص ١٢٥ ) .  
هوغو ؛ - « لو كان باستطاعتنا أن نطلق مشيحين برأسنا » ( ص ١٢٦ ) .

هودر مخاطباً هوغو : « هل تستطيع ان تعدمني الحياة بإطلاقك ببرودة رصاصة بين عيني لأنني لست من رأيك في السياسة ؟ » ( ص ١٥٧ ) .

هودر مخاطباً هوغو ايضاً : « هل يمكنك ان تقتلني بينما انا انظر اليك ؟ » ( ص ١٥٩ ) .

وأثر النظرة ، نظرة الشخص الآخر ، في انفعال الانسان ومواقفه أمرٌ يهب له « سارتر » كما نعلم قيمة خاصة . وقد فصل الحديث عنه خاصة في كتابه عن الانفعالات وفي كتابه « الوجود والعدم » ؛ ولا يتسع المجال هنا للحديث عنه .

ثم إن « سارتر » يريد بعد ذلك ان يصف لنا حزبياً من طراز خاص ، كثيراً ما نفع عليه في الحياة . وهو اذ يصفه ، لا يريد من وراء ذلك ان يطعن في الحزبيين ومواقفهم ، وانها يريد فقط ان يعرفنا على نموذج من الناس نعرفه جميعاً . انه يحدثنا عن « هوغو » وتصرفاته وتساؤلاته وما يثور في ذهنه حين كلفه زعيم حزبه ان يقتل « هودر » لأنه خطر على الحزب . « وهوغو » ليس مثلاً لكل حزبي ، وانها هو شخص من نوع خاص كثيراً ما نفع عليه . وليس سلوكه نتيجة حياته الحزبية بل نتيجة طبعه الخاص وظروفه الخاصة . إنه إنسان نشأ مدلاً ، ولم يعرف في صباه شهوة الطعام ، وكان والداه يفتحان فمه ويقولان له : « ملعقة من اجل البابا وملعقة من اجل الاما وملعقة من اجل انتا ... » . وهو بعد ذلك مثقف تحم ثقافة وعاش بين الكتب ، واكتسب من وراء ثقافته روحاً بورجوازية لم يستطع التخلص منها . وقد دخل الحزب الشيوعي من قبيل الهواية والترف ، ككثير من المثقفين الذين يريدون ان يضيفوا الى ثقافتهم وساماً جديداً عن طريق الانتساب الى الحزب . وظل في تفكيره الحزبي ضيق النظرة ، يعشق المبادئ لذاتها عشقاً جامداً ، ويتوخى

قادرون على العمل فيختاروا « الطرق الصعبة » ؟ افلا يقول لنا على لسان هودرر ، إن من واجبنا ان نخذر من يعصف برأسهم ان يمثلوا دور القتلة وان نؤثر عليهم « اولئك الناس الذين يخافون موت الآخرين ، لأن ذلك دليل على انهم يعرفون كيف يحبون » ؟ ثم هل نستطيع ان ننكر انه بين اجمل بيان مآسي عبادة المبادئ عبادة الضم ، دون مانظر الى غايتها وهدفها ؟ وهل لا نعاني في بلادنا العربية الشيء الكثير من مثل هذه العبادة الجامدة الضيقة ؟

وعسير علينا ان نحصي جميع الافكار الهامة العزيزة على « سارتر » في هذه الرواية والتي يمكن ان نجد فيها غذاء فكرياً قوياً للقاريء العربي . على اننا لا نريد مع ذلك ان نقول ان « سارتر » لا يبغى في روايته سوى ايضاح هذه الافكار وحدها دون التعرض للمشكلة السياسية عينها ، مشكلة الصراع بين الهدف والوسيلة في العمل الحزبي . فايضاح مثل هذه المشكلة من اهداف « سارتر » الرئيسية في كتابه ، ومن الامور التي يحرص عليها في فلسفة عامة . غير ان ما نريد ان نقوله في ما يتصل بهذه المشكلة ايضاً هو ان « سارتر » يهدف فيها إلى هدف لا ينجلي للقاريء لأول وهلة : فهو يود ان يبين تغير الافكار بتغير الظروف الاجتماعي ، او انبثاقها ، بتعبير اصح من هذا الظرف الاجتماعي عينه ، معارضاً ما يقوله غيره من وجود حقيقة ثابتة لا تحول ولا تزول ، ومن وجود طبيعة إنسانية نهائية أزلية ، تامة التكوين سلفاً ! موضعاً أن الأفكار والاتجاهات تولد مع الظروف الاجتماعية وتخلق معها ، وأن موقف الانسان من الأشياء هو موقف فيه خضوع للمرحلة الاجتماعية التي يمر بها ، وفيه في الوقت نفسه حرية وإرادة شخصية .

وهذا التفسير المزدوج لسلوك الانسان هو الذي يجعل فكرته دقيقة صعبة . فهو يرى أن الكائن الانساني كائن تاريخي ( فكرة الـ Gechichlichkeit الشهيرة ) يعيش في المرحلة التاريخية التي يمر بها ، ويخلق بتأثير المجتمع وظروفه . ولكن هذا الكائن الفردي في الوقت نفسه يصنع الظروف ويخلق المجتمع . فهو مقيدٌ وحرٌّ في آن واحد . وهو خالق مصيره ولكن هذا المصير يستلمه من مجتمعه وبيئته . وقد بين خير بيان في المقدمة التي قدّم بها لمجلة «العصور الحديثة» أول ما صدرت ، كيف أنه يأبى أن ينظر إلى الانسان نظرة تحليلية مجزئة

فيها « طهارة تشبه الموت » ؛ بل هو يتذرع بتلك الطهارة ، كما قال له « هودرر » كي لا يؤدي عملاً ما ، كما يفعل كثير من المثقفين . وهو يعتبر المبادئ غاية في ذاتها لا وسيلة لاصلاح البشر . فهو لا يحب إلا هي ، ولا يحب من خالها البشر والناس . إن الذي يهمه في الناس « ليس ما هم عليه وإنما ما قد يصبحون » . وهو في الوقت نفسه يدرك ادراكاً لا شعورياً انه لا يصلح لان يكون ثورياً حقيقياً وانه مقصّر عن شأو قادة الحزب الآخرين . لهذا يريد ان يعوض عن هذا الشعور وان يثبت لنفسه انه قادر على أفعال الحزبيين الأشداء . ونتيجة لذلك ينزع إلى ان يقوم بعمل هائل كبير ، يدل في اعماقه على جبن كبير وعلى رغبة في اثبات الشجاعة حيث لا شجاعة . انه يريد ان يقتل ويغتال كما يفعل غيره . أنه يملّ عمله الاصلي وهو الضرب على الآلة الكاتبة والتحرير في الجريدة ، ويريد ان يكون كأولئك الذين كانوا في روسيا في اواخر القرن الماضي : « كانوا يعترضون طريق الدوق الكبير ، وفي جيوبهم قنبلة . وكانت القنبلة تتفجر ، فيتطاير الدوق الكبير أسلاء ، وكذلك حامل القنبلة » . إنه يريد ان يشعر بوجوده عن طريق عملٍ خطير ، عزم صاعق ، فعل حرّ ( وهذه فكرة عزيزة على سارتر وعلى الوجوديين عامة كما نعلم ) . إنه يهدّد بترك الحزب اذا اتاب عنه احداً في قتل « هودرر » . ذلك انه كما قلنا فاقد الثقة بنفسه ، ويريد دوماً أشخاصاً يمنحونه هذه الثقة ، ويريد دوماً ان يقوم بأعمال توهمه بأنه جدير بالثقة :

هوغو لزوجه : - « وكيف تريد ان تعيشي إذا لم يكن هناك من يمنحك ثقته ؟ .. » ( ص ١٢٣ ) .  
بل انه يحجم عن قتل « هودرر » لأنه منحه ثقته ، ويأسف عليه بعد قتله له للسبب نفسه .

هذا هو « هوغو » كما يصفه لنا « سارتر » . فهل يعلمنا عن طريق هذا الوصف التخاذل والجبن ؟ وهل في وصف هذا النموذج من الحزبيين من حرج ؟ افلا يريد عن طريق ذلك انه يفضح حقيقة امثاله من المثقفين الذين يتطوعون لجلال الأعمال الحزبية بدافع شبه مرضي ؟ افلا يريد ان يقول لنا ما قاله « هودرر » لهوغو : « ليس خير الاعمال ما يكلفك اكثر ، وإنما خيرها ما تصيب فيه نجاحاً أوفر . » ، وان يبين لنا ان بعض البطولة الظاهرية تعبيرٌ عن جبن دفين وكره للحياة والاحياء ؟ افلا يكشف لنا عن اولئك الذين يريدون ان يبرهنوا لأنفسهم انهم

تفصل بين وجوده ووجود مجتمعه ، وكيف يرى على العكس أن كل عاطفة لديه ، وكل تفكير ، وكل سلوك تعكس وضعه الاجتماعي .

وهكذا يبين في روايته أن كلاً من «هودر» و«لويس» وهما من قادة الحزب الشيوعي في إيليريا ، يصنع آراءه حراً مختاراً ، ولكنه في الوقت نفسه يتأثر بالمرحلة التاريخية التي تجتازها بلاده . فلقد كان لويس على خلاف مع «هودر» في البداية ، ولكنه في نهاية الأمر ، عندما أخذت الجيوش السوفييتية تقترب ، انتهى مع بقية قادة الحزب إلى الأخذ بوجهة نظر «هودر» ، لأن المرحلة التاريخية أصبحت تقتضي ذلك ، ولأن وعيه لهذه المرحلة التاريخية قد تمّ بفعل عمل ذاتي حر . ولا يعني هذا ، كما قد يُظن ، أن الانسان غير مسئول عن أفعاله ، ما دامت محكومة بالظروف الاجتماعية ، وأنه غير مسئول عن آرائه ما دامت وليدة المرحلة التاريخية . وما يريد «سارتر» هو العكس تماماً . إنه يبين مسؤولية الفرد الكبير : ويرى أن كل عمل يقوم به يضيف شيئاً جديداً إلى كيانه ومصيره ويخلقه خلقاً جديداً . فهو يتكوّن بتأثير أفعاله ، وليس كائناً مكوّناً منذ البداية . وهو عندما يعمل ويختار لنفسه يختار للآخرين في الوقت نفسه : أي يشرع مبادئ عامة . « فالفرد هو الأرض كلها » . وهو وإن كان لا يستطيع دوماً أن يفعل ما يريد ، لأن الظروف الاجتماعية تؤثر فيما يفعل ، مسئول مع ذلك عما يفعل وعن حاله ومصيره ، بل لا يفعل ما يفعل الا وهو يريد . إنه لا يتأثر بالظروف وتأثر المنفعل القابل ، تأثر الحجر الجامد ، وإنما يتأثر بها تأثر الفاعل الذي يعطي لهذه الظروف معنى ويقبلها أو لا يقبلها . فهو الذي يجعل من نفسه شيوعياً أو عاملاً أو ثورياً . وهو مسئول عن هذا الاختيار . « فهو ملزمٌ مقيدٌ كلياً ، وهو حرٌّ كلياً » . ولا نريد أن نسترسل في هذا البحث عن الحرية والتقيّد عند «سارتر» ، فهو بحث يستنفد الصفحات الطوال . وحسبنا أن ندرك من وراء ما ذكرنا دقة فكرته ، وأن نرى من أي منظور ينظر إلى المشكلة التي تعنيننا ، مشكلة الهدف والوسيلة ، في روايته .

على أن هذا لا يعني «سارتر» من الملامة : فهو دوماً يعرض أفكاراً في رواياته يصعب على القارئ العادي أن يفهمها كما يريد هو ، وكثيراً ما تُفهم على عكس ما يريد . ومهما

نبريء «سارتر» تظل هنالك حتمية ينبغي ألا ننساها : وهي أن في كل رواية اتجاهها لا بد أن يفهمها القارئ من خلاله ، وأن فيها خطوط قوى ، إن صح التعبير ، ( كخطوط القوى في ساحة مغناطيسية ) تجعل القارئ ينجذب إليها فيدرك الرواية من منظارها . وهذا الاتجاه وتلك الخطوط في روايات «سارتر» توجه القارئ غالباً ، والقارئ العادي خاصة ، إلى غير الوجهة التي يريد «سارتر» . ولا بد من كثير من التأويل والتفسير حتى يستطيع المرء أن يعي باطن الأمور ويُدع ظاهرها : مما يعرض قراءه لكثير من الانحراف ، ومما يعرض أتباعه أيضاً ، كما حدث فعلاً في متاهي «فلور» و «مايبون» وكهوف سان جرمان دي بري ، إلى حمل آرائه على غير محلها والانطلاق بها إلى غير مقعدها . وهكذا نراه يقضي معظم نشاطه في مد وجزر ، في أفكار يعرضها عرضاً موهماً ملتبساً ، ويضطر بعد ذلك إلى شرحها والدفاع عنها ودفع التهم دونها . وهذه الظاهرة تضطرننا ، فيما نعتقد ، إلى الظن أن في أفكار «سارتر» تناقضاً باطنياً أصيلاً في بعض الأحيان ، وإن كان ذلك التناقض يأتيها من تناقض الحياة نفسها والتباس تياراتها : وسارتر حريص قبل كل شيء على أن يعرض الحياة في تناقضها ونقصها . على أن لنا عودة إلى هذا كله ، وكل ما قلناه دون شك في حاجة إلى فضل تفصيل .

عبد الله عبد الدائم

دمشق

صدر حديثاً

## الأفواه

مجموعة قصص لـ

عبد الرحمن الربيعي

منشورات دار الآداب